شَرْحُ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ

الدرس الثاني

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله؛ أما بعد ...

فنحن اليوم في الدرس الثاني من دروس شرح العقيدة الطحاوية، ونبدأ- مستعينين بالله تبارك وتعالى- بمادة الكتاب.

قال المؤلف -رحمه الله-: **(نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ- مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ-: إِنَّ اللهَ وَاحِدٌ لا شَرِيكَ لَهُ)**

قوله: **(نقول)** من هم الذين يقولون؟

المؤلف يتحدث عن نفسه وعمن ذكرهم في المقدمة من أئمة الأحناف، وذَكَرَ أنه اعتقاد اهل السنة والجماعة؛ فالمؤلف رحمه الله ينقل ها هنا قوله وقولهم، وينسبه إلى أهل السنة والجماعة في مسألة توحيد الله؛ فقال: **(نقول في توحيد الله)** أي: نقول نحن- أي: الذين ذكرنا- في هذه المسألة؛ مسألة توحيد الله.

ما معنى توحيد الله؟

تقدم معناه، وعرفنا معنى كلمة التوحيد؛ وهي من: (وَحَّدَ، يُوَحِّدُ، توحيداً؛ إذا جعل الشيء واحداً)؛ فتوحيد الله؛ هو: أن تجعل الله سبحانه وتعالى واحداً في كل ما يختص به تبارك وتعالى؛ فيكون هذا الشيء خاصًّا بالله؛ فلا تجعل معه شريكاً فيه.

وقد عرف أهل العلم هذه الأشياء؛ وأنها خاصة بالله، وقسموها إلى أقسام؛ بناءً على التتبع والاستقراء؛ فنظروا في الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة، واستقرؤوها؛ فخرجوا بهذه النتيجة؛ وهي أن توحيد الله- أي: إفراد الله تبارك وتعالى- يكون بأقسام ثلاثة:

توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

هذه أقسام التوحيد التي دلّت عليها أدلة الشرع من الكتاب والسنة، وقد عرفنا هذا بالاستقراء، ودليل الاستقراء دليل شرعي صحيح، وقد تحدّث عنه العلماء في أصول الفقه، والمفروض أنه قد مرَّ بكم، وعليه دليل في الشرع يدل على صحته؛ ومحله في كتب أصول الفقه.

إذن يكفينا هنا أن نقول بأن الدليل على هذا التقسيم: هو الاستقراء.

وهذه الأقسام الثلاثة ذُكِرتْ في آيات كثيرة في كتاب الله تبارك وتعالى، وقد جُمعت في آية واحدة في سورة مريم في قول الله تبارك وتعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم:٦٥].

{رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}: هذا توحيد الربوبية.

{فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ}: هذا توحيد الألوهية.

{هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}: هذا توحيد الأسماء والصفات.

والآيات في هذا كثيرة كقوله تبارك وتعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} [الأعراف:٥٤]؛ ألا لله وحده الخلق كله؛ فمن خالق غيره؟ وله الأمر وحده، قال أهل العلم: {ألا له الخلق} الذي صدرت عنه جميع المخلوقات؛ فالخلق يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وقال بعض أهل العلم بأن الأمر يدخل فيه التدبير.

والمقصود **بتوحيد الربوبية**: إفراد الله تبارك وتعالى بالخلق والملك والتدبير؛ فمعنى توحيد الربوبية: اعتقاد أن الله واحد في أفعاله؛ التي منها: خلقه، ومنها رزقه، وإحياؤه، وإماتته، والنفع، والضر، والتدبير؛ فأمر الكون بيده تبارك وتعالى، هو وحده المتصرف فيه؛ هذا معنى توحيد الربوبية؛ توحيد الله بأفعاله سبحانه، {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الزمر: ٦٢]، {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ} [يونس:٣].

وهذا النوع من التوحيد قد أقرَّ به المشركون عُبّاد الأوثان؛ لذلك جاء في كتاب الله تبارك وتعالى ما يدل على أن الكثير من المشركين كانوا يُقرّون بهذا النوع من التوحيد؛ {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [لقمان:٢٥]؛ سبحانه وتعالى، {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [يونس:٣١]، إذن كانوا يُقرّون بهذا التوحيد، ولكن أكثرهم كان يشرك في النوع الثاني من التوحيد؛ وهو توحيد الألوهية.

توحيد الألوهية: هو إفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة؛ ويسمى توحيد العبادة، فباعتبار إضافته إلى الله؛ يسمى توحيد الألوهية، وباعتبار إضافته للخلق؛ يسمى توحيد العبادة؛ فالمستحق للعبادة هو الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ} [لقمان:٣٠]، {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} [النساء:٣٦]، {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الإسراء:٢٣]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فهذا هو الأصل الذي بُعث به الأنبياء لأقوامهم؛ لأن شرك أقوامهم كان في هذا النوع من التوحيد؛ فكانوا يعبدون مع الله غيره؛ لذلك كان قول الكثير من الأنبياء عندما بُعثوا إلى

أقوامهم: {يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف:٦٥]؛ فكثير من الأنبياء قال هذه الكلمة لقومه، والنبي ﷺ لمّا بُعث إلى كفار قريش وغيرهم من العرب والناس كان يقول لهم في أول دعوته: "قولوا لا إله إلا الله تفلحوا"، فلمّا سمعوا هذه الكلمة؛ قالوا: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص:٥] فكانوا يتعجبون من هذا، مع أنهم كانوا يقرون بتوحيد الربوبية- كما تقدم-، فكان أكثر شرك أهل الأرض والذين بُعث إليهم الأنبياء في هذا الجانب؛ في هذا النوع من التوحيد.

هذه المسألة نحن نركز عليها كثيراً؛ لأنها سبب الخلاف بيننا وبين أقوام آخرين سيأتي ذكرهم، خالفونا في هذه المسألة؛ فكان تركيزهم على توحيد الربوبية، حتى أهملوا هذا النوع من التوحيد؛ فنتج عن ذلك فساد عريض في الأرض، ورجع الكثير من الناس إلى عبادة الأوثان بسبب هذه العقيدة عند الكثير من العلماء الذين ينتسبون إلى هذه الأمة؛ أمة الإسلام، وسيأتي ذِكر الأقوام الذين ينتهجون هذا المنهج ويخالفوننا في هذه المسألة، فهي مسألة عظيمة؛ وهي: أن تعلم أنواع التوحيد، وأن تعلم أصل شرك المشركين، وكيف كان أكثره؛ فلا بُدّ أن تعرف حال الأوائل، ولماذا بُعثت إليهم الرسل؛ حتى تعرف الفارق وأين تُركِّزُ دعوتك.

فهذا التوحيد هو الذي بُعثت به الرسل؛ لأن شرك أقوامهم كان فيه، ولم يكن في الربوبية؛ وهذا الغالب على أهل الأرض والذين بُعث إليهم الأنبياء والرسل؛ فكانت دعوة الأنبياء والرسل إلى هذا النوع من التوحيد؛ {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل:٣٦]، {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء:٢٥]؛ هذه إذن دعوة الأنبياء جميعًا؛ {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}؛ أي: اعبدوا الله واتركوا عبادة غيره، {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}؛ أي: يقول الله سبحانه وتعالى: لا معبود حق إلا أنا؛

فاعبدوني وحدي ولا تعبدوا معي غيري، كلام واضح، هذه دعوة الرسل جميعاً؛ {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ}، {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا} هذه دعوة الرسل جميعاً.

هل معنى ذلك أن نُهمل النوع الأول من التوحيد؛ وهو توحيد الربوبية؟

لا؛ ليس هذا المراد؛ ولكن لا تجعل توحيد الربوبية هو الغاية القصوى والعظمى لك وليس بعدها توحيد؛ هذا هو المُشكل هنا، فمن وحّد الله في ألوهيته وعبادته؛ فإنه قد وحَّده سبحانه وتعالى تلقائياً وضمنيَّاً في ربوبيته.

ومن هنا قال العلماء: توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية؛ أي: إذا عبدت الله وحده؛ فتلقائيَّاً أنت تؤمن بوجود الله، وتؤمن بأنه خالق السماوات والأرض، وتؤمن أنه مدبر السماوات والأرض، وتؤمن أنه هو الرزّاق الكريم؛ فكيف تعبد الله وحده وأنت لا تؤمن بذاك؟

هذا لا يمكن؛ فهو متضمن له.

وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ فهو لازم له؛ لكن البعض يلتزم هذا اللازم والبعض لا يلتزمه، ولا يعني ذلك أنه لا يوجد من لا يشرك بالربوبية مطلقاً، أو لا يكفر حتى بالربوبية، أو لا يشرك في بعض أنواع الربوبية، لا؛ كل هذا موجود؛ لذلك نحن ندعوا إلى توحيد الربوبية، وندعوا إلى توحيد الألوهية كما دعت الأنبياء والرسل، لكن أعظم ما حصل فيه الخلل والشرك هو النوع الثاني؛ وهو توحيد الألوهية؛ لذلك فنحن نركز عليه كما ركَّز عليه الأنبياء والرسل، نعم إذا خاطبنا شخصاً يكفر بالربوبية؛ فهذا نبدأ معه بالربوبية؛ لأنه إذا لم يؤمن بالربوبية؛ فتلقائيَّاً لن يؤمن بالألوهية.

والنوع الثالث من التوحيد **توحيد الأسماء والصفات**؛ فالأسماء: أسماء الله سبحانه وتعالى، والصفات؛ هي الصفات التي يُوصف بها ربنا تبارك وتعالى.

ومعنى **توحيد الأسماء والصفات:** هو إفراد الله سبحانه وتعالى بما له من الأسماء والصفات، فنثبت لله ما أثبت لنفسه من الأسماء والصفات في الكتاب أو في السنة، وننفي عنه ما نفى عن نفسه من الأسماء والصفات، ومع إثباتنا للأسماء والصفات ننفي المماثلة؛ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى:١١]؛ فهو تبارك وتعالى لا مثل له؛ لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}؛ فنحن نؤمن بهذا: نثبت الأسماء والصفات من غير تحريف ولا تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل؛ أربع لاءات، وسيأتي إن شاء الله تفصيلها في موضعها، وقد تقدم في كتب سابقة.

هذه هي أنواع التوحيد، وهذا هو موضوع التوحيد.

وقول المؤلف: **(معتقدين بتوفيق الله)** تقدم معنى الاعتقاد؛، فنحن نقول في موضوع التوحيد ونحن نعتقد واعتقادنا هذا حصل بتوفيق الله لنا؛ لأن الهداية بيد الله سبحانه وتعالى، والذي يوفقك إلى ما يريده تبارك وتعالى هو الله سبحانه وتعالى؛ يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فهذا حصل بتوفيق الله لنا، لا بحولنا ولا بقوتنا والحمد لله.

نقول في موضوع التوحيد؛ توحيد الله سبحانه وتعالى؛ أي: إفراد الله تبارك وتعالى بكل ما يختص به، ونحن نعتقد واعتقادنا هذا حاصل بتوفيق الله لنا؛ ماذا نقول؟

نقول: **(إن الله واحد لا شريك له)** هذا قولنا، إذن عن أي نوع من أنواع التوحيد يتحدث؟

إن الله واحد لا شريك له، قال: (واحد) ولم يقل: في ربوبيته أو في ألوهيته أو في أسمائه وصفاته؛ فهي تشمل كل هذا؛ أن الله سبحانه وتعالى واحد في ربوبيته لا شريك له فيها- والشريك من المشاركة؛ يشاركه-؛ لا يوجد من يشاركه لا في الخلق ولا في الرزق ولا في التدبير، فمن أثبت خالقاً مع الله؛ أشرك به، من أثبت رزّاقاً مع الله سبحانه وتعالى؛ فقد أشرك به، من أثبت مدبِّراً لهذا الكون مع الله؛ فقد أشرك به في ربوبيته.

وكذلك في الألوهية من عبد غير الله معه؛ فقد أشرك به، ولمّا سئل النبي ﷺ عن الشرك؛ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك؛ والنِّد: هو المثيل المساوي.

وكذلك واحد في أسمائه وصفاته- كما تقدم-؛ فهي شاملة للجميع: إن الله واحد لا شريك له؛ أي: لا مشارك له بكل ما يختص به من ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

هذا ما يتعلق بمعنى هذه الجملة التي ذكرها المؤلف رحمه الله.

فأنواع التوحيد عند أهل السنة ثلاثة: ربوبية، وألوهية، وأسماء وصفات.

طبعاً هذا التقسيم ثابت عن أهل العلم من قديم؛ موجود في كلام ابن جرير الطبري في تفسيره، و في كلام ابن منده وغيرهم من أهل العلم؛ فهذا تقسيم قديم وليس حادثاً، وذكرنا أن دليله الاستقراء، والأئمة من السلف نطقوا به وذكروه، نحن على طريقة السلف والحمد لله؛ فعندنا دليل من الكتاب ومن السنة، وعندنا من أئمتنا من ذكره؛ فالحمد لله.

فمن زعم أن هذا التقسيم حادث؛ فهذا لم يعرف كلام العلماء ولا اطَّلع عليه، أو هو مُلَبِّس- أحد أمرين-؛ فهذا تقسيم قديم، ليس هو من كلام ابن تيمية ولا كلام غيره من المتأخرين؛ بل هم تَبَعٌ فيه لغيرهم، ونحن في دين الله سبحانه وتعالى- سواء كان هذا في التوحيد أو في العقيدة أو في الفقه أو في أي شيء- إن وجدنا كلاماً يقوله عالم، ولم نجد عليه دليلًا من الكتاب أو السنة أو لم نجد أحداً من السلف قال به؛ فنرده كائناً من كان القائل؛ فلا يوجد في ديننا شيء جديد، ونحن نحرص كل الحرص على أن يبقى الدين صافياً نقيَّاً كما أنزله الله تبارك وتعالى على نبيه ﷺ، وكما عرفه الصحابة الكرام رضي الله عنهم؛ ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

حتى علماؤنا الذين هم أئمتنا؛ نحبهم ونحترمهم ونعرف لهم قدرهم ونعرف لهم علمهم، لكن إذا جاءنا قول عنهم؛ نعرضه على الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح رضي الله عنهم، فإن

وجدناه يوافق؛ أخذنا به، وإن وجدناه يخالف؛ تركناه، ليس عندنا تعصب لأيِّ رجل أيًّا كان مطلقاً، ديننا: قال الله، قال رسول الله ﷺ، وما كان معروفًا عند سلفنا الصالح رضي الله عنهم من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، وما لم يكن في وقتهم ديناً؛ فلن يكون بعدهم ديناً.

هذا هو ديننا، وهذا ما نمشي عليه، وهذا ما يميِّزُ أهل السنة والجماعة؛ أنهم لا يقبلون المحدثات في دين الله، ولا يقبلون التغيير في دين الله، وأنهم جميعاً على أصلٍ واحد، لا يختلفون في أصول دينهم، ولا يُحدثون في دينهم قولًا لم يكن في سلفهم رضي الله عنهم، فَهَمُّنا أن يبقى الدين صافياً نقيًّا كما أراده الله تبارك وتعالى؛ ليحيى من حيَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، ولولا هذا المنهج الذي سلكه أئمتنا وعلماؤنا وعلّمونا إياه؛ لذهب الدين.

انظروا إلى حال أهل البدع، وانظروا إلى تغييرهم لدين الله وشرعه، وإلى أين وصلوا بهذا؛ صار عندهم دين جديد أحدثوه، إذا قارنته بما كان عليه النبي ﷺ والصحابة؛ لا تعرف منه شيئاً.

المهم: هذا التقسيم قديم وموجود في كلام أئمتنا؛ إما بالتصريح أو بالتلميح، وبعض أهل العلم قسّم التوحيد إلى قسمين: توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد في القصد والطلب.

هذا التقسيم اصطلاحي، لم يخرج به صاحبه عن التقسيم الأول.

كيف؛ فذاك ثلاث، وهذا اثنان؟

الذي يريده مَنْ قسَّمَ هذا التقسيم- وقد ذكر وشرح هو معنى كلامه-؛ الذي يريده مِنَ المعرفة والإثبات: توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وأما توحيد القصد والطلب؛ فأراد به: توحيد الألوهية؛ إذن المعنى في النهاية يصبُّ في مَصَبٍّ واحدٍ؛ سواء كان التقسيم

ثلاثيّاً أو ثُنائِيّاً، ولكن المشهور عند أهل العلم هو التقسيم الثلاثي الذي قدمناه؛ فنبقى عليه.

هل يوجد من قسَّم التوحيد إلى أقسام أخرى؟

نعم يوجد؛ فالمتكلمون مثلًا قسَّموا التوحيد إلى ثلاثة أقسام؛ لكن ليست هي هذه الأقسام التي ذكرناها؛ قسَّموه إلى: واحد في أفعاله، وواحد في ذاته، وواحد في صفاته، يعني توحيد في الأفعال، توحيد في الذات، توحيد في الصفات، ولاحظ أنت كلها ترجع إلى توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات فقط؛ فلا يذكرون توحيد الألوهية، فاهتمامهم الأعظم مُنصّبٌ على توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وليس كتوحيد أهل السنة طبعاً؛ يوجد فروق كبيرة ستأتي إن شاء الله، لكن هذا اصطلاحهم؛ لا تجدهم يذكرون توحيد الألوهية.

ويوجد من قسَّمَ تقسيماً آخر؛ فجعل التقسيم رباعيّاً؛ الثلاثة التي قدمنا- توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات-، وزاد: توحيد الحاكمية؛ فصار التقسيم عنده رباعيّاً؛ وهؤلاء الخوارج؛ الخوارج المعاصرون في زماننا هذا، قسَّموا التوحيد إلى أربعة أقسام، وجعلوا الرابع: توحيد الحاكمية.

لكن ما المشكلة في هذه القسمة؟ أليست الحاكمية داخلة في التوحيد؟ ألم يقل الله سبحانه وتعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} [الأنعام:٥٧]، وقال: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة:٤٤]؛ إذن الحكم خاص بالله {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} فكيف تفعلون؟ لماذا لا يُفرد بقسم خاص؟

هل قَبِلَ أهل العلم هذا التقسيم؛ لمّا نطق به البعض؟

لم يقبلوه؛ لأسباب:

أولًا: الذين قسَّموا التوحيد من السلف القدامى والأئمة؛ ما ذكروا هذا التقسيم الرباعي؛ لكنهم ذكروا الثلاثي.

ثانيًا: ربما تقول المسألة اصطلاحية، فكما قبلتم مِنَ الذي قسَّم تقسيماً ثنائيًّاً؛ لم لا تقبلون ممن قسّم تقسيماً رُباعيًّاً؟!!

نقول: قد قبلنا ممن قسّم التقسيم الثنائي؛ لأنه أرجعها كلها إلى التقسيم الثلاثي، أما هؤلاء؛ فقد زادوا قسماً رابعاً لفظاً ومعنى.

كيف لفظاً ومعنى؛ قلنا قبل قليل: إنه يوجد توحيد في الحاكمية أيضاً؟

أقول لك: هؤلاء لم يكتفوا بتقسيم السلف؛ فلماذا زادوا هذا الرابع، وما الذي يريدونه؟ مهم جدًا أن تعرف السبب كي تحكم على المسألة.

لما ذكر العلماء التوحيد الثلاثي؛ قالوا: توحيد الحاكمية هذا داخل في توحيد الربوبية؛ لأن الحكم من أفعال الله، وقال البعض الآخر: هو داخل في توحيد الألوهية؛ لأننا مُتَعَبَّدونَ لله سبحانه وتعالى بالحكم بشرعه؛ فإما أنه يدخل في توحيد الربوبية أو يدخل في توحيد الألوهية؛ فلم إفراده بقسم مستقل؟

الذين قسموا هذا القسم أرادوا من ذلك الغلو في هذه المسألة؛ لذلك أفردوها بقسم مستقل، وأرادوا من ذلك أن يُكَفِّروا بها كما كَفَّر الخوارج الأُوَل؛ كما قال ابن تيمية رحمه الله في "منهاج السنة"؛ قال: (كفروا علي بن أبي طالب بالحكم بغير ما أنزل الله وقالوا: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}، وكفروا من معه بالتَّوَلي؛ {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة:٥١])؛ هذا الكلام ذكره ابن تيمية رحمه الله عن الخوارج السابقين الذين كانوا في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ هذا أصلهم،

فأراد هؤلاء الأتباع أن يغلوا كما غلا أولئك في هذه المسألة؛ فأفردوها بقسم مستقل؛ هذا ما ترمي إليه المسألة.

من هنا أنكر العلماء هذا التقسيم، وشنَّعوا على من فعله؛ وإلَّا فهذا النوع من التوحيد داخل ضمن الأقسام الثلاثة، من غير غلو؛ باعتدال كما أراد الله سبحانه وتعالى، وكما أراد نبيه ﷺ.

وهل هناك من خالف في هذا التقسيم أيضًا؟

نعم يوجد؛ الصوفية خالفوا فيه؛ فالتوحيد عند الصوفية ثلاثة أقسام أيضاً؛ لكنها ليست هذه الأقسام التي معنا، التوحيد عندهم ينقسم إلى: توحيد العامة، وتوحيد الخاصة، وتوحيد خاصة الخاصة.

إذن الصوفية عندهم ثلاثة أنواع:

توحيد العامة؛ هو توحيد الألوهية؛ وهو توحيد الأنبياء والرسل، وهذا التوحيد يُعرف ويَصِحُّ عن طريق الشواهد وهم الرسل- هكذا يُطلقون الشواهد ويعنون بها الرسل-، هذا التوحيد ليس للصوفية؛ إنما للعامة؛ للأنبياء، للرسل، لعامة المسلمين؛ هؤلاء الذين لا يرتقون إلى توحيد الخاصة؛ هذا النوع من التوحيد لهم، حتى الأنبياء والرسل يدخلون ضمن هذا طبعاً.

ويقول بعضهم: إن كل من يُكذِّب بتوحيد الخاصة أو خاصة الخاصة أو لا يمكنه أن يدرك بعقله؛ فمثل هذا يبقى على توحيد العامة، ويعنون بالتكذيب: أن يُكّذِّب بالفناء؛ الفناء هذا له حكاية لوحده، فهذا التوحيد- توحيد العامة-؛ هو للعامة وليس لهم.

أما التوحيد الذي لهم؛ فهو توحيد الخاصة، وهو في الحقيقة توحيد ربوبية؛ لكنه يَثْبُتُ عندهم بالحقائق لا بالشواهد، يعني ليس عن طريق الأنبياء والرسل ولا حتى عن طريق

العقل؛ لأن عندهم علم حقيقة وعلم شريعة؛ الشريعة هي التي جاءت بها الرسل، وتُعْرفُ عن طريقهم، أما الحقيقة؛ فهذه أمور تعرف عن طريق القلب؛ بالمشاهدة والمكاشفة، فعندهم توحيد الخاصة هذا هو توحيد الربوبية، ولكن يوجد فيه لف ودوران ولعب في الأمر.

المشاهدة والمكاشفة هذا شيء خيالي من عند الصوفية؛ فتوحيد الربوبية إما بالعقل أو بالشرع؛ يعرف بهذا ويعرف بهذا، وهو أمر فطري أصلًا، فطر الله سبحانه وتعالى العباد عليه.

فتوحيد الربوبية فطري عقلي شرعي؛ كما قال النبي ﷺ:"مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ" متفق عليه، قال أبو هريرة: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} [الروم: ٣٠]؛ فالعباد مفطورون على توحيد الربوبية.

ويعرف أيضاً بالعقل، ودلالة العقل على أن الخالق للعالم واحد مذكور في قول الله تبارك وتعالى: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [المؤمنون:٩١]؛ هذه الآية تدلك على كيفية إدراك العقل لوحدانية الله تبارك وتعالى في خلقه.

لكن الصوفية عندهم طريقة أخرى؛ وهي طريقة المشاهدة والمكاشفة التي توصل إلى الحقيقة، والحقيقة هذه قلنا ليست كالشريعة، وإذا أردت أن تعرفها -بناء على قول الصوفية- فَفَرِّق بين موسى والخضر؛ فقالوا: موسى معه الشريعة، والخضر معه الحقيقة، والخضر قتل الغلام، علم أن هذا الغلام سينشأ كافراً فقتله؛ قالوا: بعلم الحقيقة بالمشاهدة والمكاشفة، وهذا العلم لم يكن مع موسى، كان مع موسى الشريعة، والخضر معه الحقيقة؛ هكذا يزعمون.

وقلنا: هذه الحقيقة شيء مخترع من عندهم؛ إذ هي شيء لا هي الشريعة ولا هي العقل؛ بل شيء قلبي.

إذن هذا النوع- توحيد الخاصة- يدور حول توحيد الربوبية، ويعرف بالطريقة التي ذكرنا لكم؛ يثبت بالحقيقة، ويدورون حول أن المرء يبقى يُثبت أفعال الله سبحانه وتعالى ووحدانية الله سبحانه وتعالى في أفعاله وأنه النافع وأنه الضار حتى ينسى نفسه في هذا العالم، ولهم كلام كثير حول هذا الأمر؛ المهم: أن أعظم ما يصل إليه هؤلاء هو توحيد الربوبية.

أما التوحيد الثالث؛ فهو توحيد خاصة الخاصة، وهذا التوحيد فهو الغاية القصوى عندهم، والذي يصل إليه؛ يكون من المُقَدَّمين عندهم.

عقيدة الحلول والاتحاد هذا توحيد خاصة الخاصة، ليس توحيداً؛ بل هو شرك، ولكن يسمونه توحيداً؛ توحيد الحلول والاتحاد، لا يوجد عابد ولا معبود؛ فالله تبارك وتعالى- وتعالى عن قولهم- حالٌّ في كل شيء، مُتَّحِدٌ مع كل أحد؛ هذا معنى كلامهم، وهذه الغاية التي يصل إليها السالك؛ هكذا يسمون الموحد عندهم بهذا التوحيد، الذي يسلك في التوحيد يسمونه سالكاً، وعندما يصل إلى هذه العقيدة- عقيدة الحلول والاتحاد-؛ تسقط عنه التكاليف، قد وصل عندهم إلى درجة اليقين؛ اليقين بأنه لا عابد ولا معبود وأنه حالٌّ في كل أحد؛ هؤلاء عندهم أن فرعون لم يكفر لأنه قال: أنا ربكم الأعلى، ولكن لأنه حصر الربوبية في نفسه فقط، وليس له حق في هذا عندهم؛ لأنها ليست في نفسه فقط؛ هو حالٌّ في كل أحد؛ نسأل الله العافية والسلامة؛ هذا كفر صريح، هؤلاء وصلوا إلى هذا الحد من الكفر. نسأل الله العافية والسلامة.

ومن هؤلاء ابن عربي وغيره، وهو ابن عربي وليس ابن العربي؛ ابن عربي المُنَكَّر لا يوجد ألف واللام فيها، وابن العربي ذاك من فقهاء المالكية بالألف واللام، فابن عربي هذا كان يعتقد هذه العقيدة، وعندما يتكلم بعضهم حول هذا؛ يقول: أنتم لم تفهموا كلام هؤلاء لأجل أن يدافعوا عنهم- يقولون : أنتم لم تفهموا كلام هؤلاء، وهم يعرفون في قرارة أنفسهم ما الذي

يعتقدونه، وما الذي يريدونه؛ لكن يقولون: أنتم العامة لا تصلون إلى درجة أن تستوعبوا هذه الحقائق وتفهموها؛ فابقوا على توحيد العامة فقط؛ فهذا ليس لكم، هذا لهم هم؛ هكذا يحاولون التلبيس على الناس.

لذلك في زمننا هذا أحد الدعاة المشهورين والذين يُرَوَّج لهم ويُنشر لهم بقوة؛ قال هذه الكلمة مدافعاً عن أحد كبار الصوفية الذين يعتقدون هذه العقيدة، وذكر هذا الكلام مدافعاً عنه؛ يقول: أنتم ما فهمتم عليه ما الذي يريده؛ فدافع عن الحلاج، وبعض الصوفية أيضاً دافعوا عنه مع أنه كفر كُفراً صريحاً، قالوا: أنتم ما فهمتم كلامه، ويريدون بهذا أنكم لا تستطيعون أن تصلوا إلى فهم هذه الحقائق؛ الحقائق الشركية.

المهم: هؤلاء من الذين خالفوا أهل السنة في هذا التقسيم، والرد عليهم- طبعاً- قد استوعبه أهل العلم، وهذا التقسيم بالذات ذكره ابن تيمية رحمه الله في "منهاج السنة"، وردَّ فيه رحمه الله على الهروي لما ذكر هذا التقسيم، وذكر شارح الطحاوية وغيره أيضاً كلام هؤلاء، وقال الشارح بأن كلامهم هذا ينتهي إلى الفناء الذي يُشَمِّر إليه غالب الصوفية، وهو درب خَطِر يُفضي إلى الاتحاد؛ يعني إلى الحلول والاتحاد.

طبعًا هذا التقسيم وهذا التقرير كله لا دليل عليه لا من الكتاب ولا من السنة ولا من الإجماع، والأدلة الشرعية دَلَّت على التقسيم الذي ذكرنا؛ فهذا التقسيم تقسيم مُبْتَدَعٌ؛ بل هو تقسيم مؤدٍ بهم إلى الكفر إلى عقيدة الكفر؛ عقيدة الحلول والاتحاد.

نكتفي اليوم بهذا القدر، وفي الدرس القادم إن شاء الله نتحدث عن أول دعوة الأنبياء وأول واجب على الناس، ومخالفة المتكلمين لأهل السنة في التوحيد، وما الذي أوصلهم إلى نفي الصفات عن طريق توحيد الربوبية؛ كل هذا نؤجله إلى الدرس القادم إن شاء الله ونكتفي اليوم بهذا القدر. والله أعلم. والحمد لله.